بسم الله الرحمان الرحيم

ما يضاف لله، نفيا أو إثباتا

الصفات باعتبار ما يضاف لله نوعان :

1- صفات يختص بها الإله دون غيره.
2- و صفات بانفكاكها أو زوالها تزول عنه الإلهية فلا يصير مستحقا للعبادة.

فمن الأولى : و هي الصفات التي يختص بها الإله دون غيره : العلم بكل شيء، القدرة على كل شيء، الغنى عن العالمين، و يتفرع عنها صفات مثل الرحمة التي وسعت كل شيء، و اللطف و الخبرة و غيرها مما يختص الله به... و هذه الصفات هي متعلق العبادات جميعا، فمن صرف شيئا من العبادات لغير الله فقد جعل لله ندا في ما ذكر من الصفات أو بعضها أو نفى عن الله بعض ما يتصف به مما تزول عنه الألوهية بزواله،

و لنضرب أمثلة على ذلك :

1 – دعاء غير الله في قضاء الحاجات أو كشف الكربات، فمن فعل ذلك قد جعل بيد المخلوق النفع و الضر و هذا لا يكون إلا لله وحده و جعله لغيره شرك و تنديد.

و تخرج صورة من طلب من ميت أمامه أن يدعو الله له أن يقضي له حاجته، فإنه لم يجعل النفع و الضر بيد هذا الميت لكنه ضل حين جعله سميعا قادرا على أن يدعوا الله، فهو لم يجعله بصفات الله بل أخرجه من صفات الموتى إلى صفات الأحياء و هذا الطلب مع كونه باطلا لكنه لا يسمى دعاءا بل طلب دعاء لكن يصدق عليه أنه كذب قوله تعالى "إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80)"(النمل - 80) و يصدق عليه أنه ملعون إذ اتخذ قبر الأولياء مسجدا، لكنه إن لم يكن أمامه أو قريبا قرب الحاضر كان فعله شركا أكبر إذ سواه مع الله في سمعه و علمه، ثم يقال أن الأصل في فاعل ذلك أنه كافر لكون هذا الفعل لا يصدر إلا من مشرك عابد للقبور لكن إذا كان متبرئا من الشرك و أهله الذين يعبدون القبور ثم وقع في مثل هذا –و هذا يندر بلا نزاع- فمسألته يقال إنها خفية فتبين له الأدلة من الكتاب و السنة على بطلان ما يفعله، فإن أذعن و أقر فيتركه و يتوب و لا شيء عليه و إلا فهو معاند و جاحد من الكافرين.

2 – التوكل على غير الله، فمن فعل ذلك فقد فوض الأمر كله إلى من توكل عليه و هذا القدر يختص به الله وحده و جعله لغيره شرك و تنديد.

3 – الخوف المنافي للأمن و الرجاء المنافي لليأس و القنوط، فصرف شيء من الخوف لغير الله يعني وصفه بالكبرياء و العزة و العلم بذات الصدور و هذا إشراك مع الله في ما يختص به، و كذا صرف الرجاء لغير الله يعني وصف غيره بالرحمة الواسعة لكل شيء و العلم بكل شيء و أنه يمتحن الخلق بعلم و حكمة تماثل علم الله و حكمته و كل هذا إشراك في وصف الله.

و ليس هذا كالخوف الطبيعي كالعلم بشأن مخلوق و الخوف من ظهور آثاره كخوف المرء من الأسد، فإن هذا و ما شابهه خوف مسبوق بالعلم بشأن المخاف منه لا بجعل شأن المخاف منه كشأن الله و وصفه.

4 – الخشية، فصرفها لغير الله يعني تشريك غيره معه في علمه للسر و الرقابة و كون الأمر كله بيده.

5 – طلب الشفاعة من المخلوق، فمن طلب الشفاعة من المخلوق فقد جعل المخلوق مؤثرا في حكم الله كما يؤثر الوزير في حكم الملك و هذا يعني سلب صفة الغنى عن الله فهو غير

مستغن عمن طلبت منه الشفاعة و هذا وجه كفره.

6 – استغاثة الغريق بصاحب القبر، و هذا يعني أن صاحب القبر يعلم حاله و يملك القدرة على إغاثته و هو في قبره، و هذه القدرة لا تتصور إلا كقدرة الخالق و كذا العلم المثبت لصاحب القبر فهو كعلم من بكل شيء عليم، و جعل هذه الأوصاف لغير الله ممن هو ميت شرك، بخلاف الإستغاثة بمن هو حي حاضر قادر كالغريق الذي يستغيث بصاحبه.

و مثل هذا يقال في الإستعانة و الإستعاذة و ضابط ذلك أنه إذا كانت مما لا يقدر عليها إلا الله فطلبها من غيره شرك معلوم بالإضطرار.

7 – التوبة أو الإنابة أو الإستغفار إلى المخلوق، و هذا يعني أن ذاك المخلوق صار مشرعا ديانا أعلى لا حكم فوق حكمه و لا قاضي فوقه و هذا لا يكون إلا لله وحده.

8 – النذر لغير الله، و هو وعد بصرف شيء من العبادة لغيره فمن فعل ذلك فقد جعل لله شريكا في استحقاق العبادة و هذا شرك في الألوهية.

و جامع هذه العبادات هو ما مدح الله بها عباده المؤمنين أو ذم الكافرين بصرفها لغيره في كتابه أو على لسان نبيه، و منها الإسلام، والإيمان، والإحسان، ومنه الدعاء والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر،و التحاكم لشرعه و تحكيم كتاب الله و سنة رسوله و طاعته و غير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها، والدليل قوله تعالى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً} ، (الجن: 18). فمن صرف من ذلك شيئا لغير الله، فهو مشرك كافر، والدليل قوله تعالى: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} ، (المؤمنون: 117).

وفي الحديث: " الدعاء مخ العبادة " 1، والدليل قوله تعالى: { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} ، (غافر: 60).

ودليل الخوف قوله تعالى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} ، (آل عمران: 175). ودليل الرجاء قوله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَ} (سورة الكهف آية: 110). ودليل التوكل قوله تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} ، (سورة المائدة آية: 23). وقوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} (سورة الطلاق آية : 3).

ودليل الرغبة والرهبة، والخشوع، قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} ، (سورة الأنبياء آية : 90).

ودليل الخشية قوله تعالى: {فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي} ، (البقرة، من الآية: 150). ودليل الإنابة قوله تعالى: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} ، (الزّمر، من الآية: 54).

ودليل الاستعانة قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} ، (الفاتحة: 5) ، وفي الحديث: " إذا استعنت فاستعن بالله " 1

ودليل الاستعاذة قوله تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} ، (الفلق: 1)، و {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} ، (الناس: 1).

ودليل الاستغاثة قوله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} ، (الأنفال، من الآية: 9).

ودليل الذبح قوله تعالى: {قُلْ إِنّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ} ، (سورة آية : 163-162). ومن السنة قوله صلى الله عليه و سلم " لعن الله من ذبح لغير الله " 2 ودليل النذر قوله تعالى: {يُوفُونَ بِالنّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً} ، (الإنسان: 7).

و دليل التحاكم قوله تعالى : {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ}، و دليل تحكيم الكتاب و السنة قوله تعالى : {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ}

و دليل طاعة الرسول قوله تعالى : " مَنْ يُطِعِ الرّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَنْ تَوَلّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (80) "

و جامع الصفات المتعلقة بها أنها مما يختص بها الإله دون غيره و بيانها على ضربين :

الأول من جهة الفطرة و العقل : و هو أن جميع هذه الصفات منشئة عند العبد فطريا عند التذكير بها ضرورة يجدها من نفسه باعثة على التوجه بالكلية إلى صاحب هذه الصفة تذللا و محبة و تعظيما و افتقارا و عجزا من جميع الوجوه و طمأنينة و خوفا و رجاءً و لجوءً و غير ذلك من صنوف العبادات القلبية فهذه الأعمال إنما تقوم بالقلوب لأجل المناسبة بين عبودية العبد و ألوهية الإله و هذا ذاته دليل من الفطرة التي فطر الله الناس عليها و هي الشاهد من النفس على النفس تماما كما "أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا" فلم يعط اعتبارا لادعاء الغفلة عن هذا أو تركه لأجل التقليد فقال بعدها: "أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنّا كُنّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنّا ذُرّيّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173)"

الثاني من جهة الوحي و السمع : فهذه الصفات قد بينها الله بيانا يضطر لفهمه الأمي حين يبلغه إذ "هُوَ الّذِي بَعَثَ فِي الْأُمّيّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكّيهِمْ وَيُعَلّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2)" فمن كان أميا و ادعى عدم الفهم فقد كذب و كذب بآيات الله التي وصفها الله بأنها "بَيّنَات"، و قد بين الله ما يختص به من الكمال المطلق على وجه الإجمال و التفصيل و بين أن من مقتضى الفطرة أن لا يجعل العبد لله ما يكرهه فقال "لِلّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60)" و قال "وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنّ لَهُمُ النّارَ وَأَنّهُمْ مُفْرَطُونَ (62)" و قال : "إِنّ اللّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6) " و قال "هُوَ الّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمّ اسْتَوَى إِلَى السّمَاءِ فَسَوّاهُنّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29)" و قال "إِنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" و نفى أصول الكمال من العلم و القدرة و الغنى عن أكرم خلقه فقال : "قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنّي مَلَكٌ إِنْ أَتّبِعُ إِلّا مَا يُوحَى إِلَيّ" و فصل في ذكر ما يختص به من الأسماء و الصفات و الأفعال في ثلث القرآن كما أن سورة الإخلاص الجامعة لذلك تعدل ثلث القرآن فقال "قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ (1) اللّهُ الصّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)" و من ذلك قوله " اللّهُ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْحَيّ الْقَيّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيّهُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيّ الْعَظِيمُ" و قوله "هُوَ اللّهُ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ هُوَ الرّحْمَنُ الرّحِيمُ (22) هُوَ اللّهُ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدّوسُ

السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)" و قال "الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (13) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (16) "

و علق إفراده بما يستحق بانفراده بما يختص به بأوضح البيان و من ذلك أنه قال : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22) " و قال "بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103)" و قال " إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55)" و قال " إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (3)" و قال " قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32)" و قال "يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14) يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15)" و قال "خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6)"

فأنى تصرفون ...

فمن زعم أن عقله و فطرته لا يدلانه على ما يختص الله به فقد كذب القرآن إن لم يكن منسلخ الفطرة و كلاهما كفر، فإن العقل الصريح لا يتعارض مع النقل الصحيح فالكل من عند الرحمان الذي " عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) " فإن صدق القرآن فإن شفاءه به عن طريق السمع و هذا فيه خير لقوله تعالى " وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ" لكن من أغلق على نفسه السمع و العقل كان من الهالكين كما قال تعالى عن أصحاب السعير و هم شر الدواب عند الله " قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (9) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ

السّعِيرِ (10) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السّعِيرِ (11)".

و من الثانية : و هي الصفات التي بانفكاكها تنتفي الألوهية : الأحدية المنافية للتفرق العلم، القدرة، الحياة، الكلام، السمع، البصر، الإرادة، الغنى، الحكم، الأمر، الحكمة، العدل، العزة، الكبرياء، الرحمة، الخلق، القهر، و غيرها؛ فضابطها أنها بانفكاكها تنتفي الأوهية عن الله فلا تصح عبادته.

فمن نفى أحد هذه الصفات أو معانيها عن الله فقد كفر و لا يعذر بجهل أو تأويل لأن أصل الإسلام لا يثبت إلا بهذا فكيف يبقى إسلام إذا عدم مثل هذا، و يخرج من هذه الصور من نفى جزئية من جزئياتها حيث لا تنتفي بذلك النفي صفة الألوهية عن الله، فحينئذ لا يقع عليه الكفر كمثل الذي حضره الموت فقال لابنيه إذا مت فحرقوني و ارموني نصف في البحر و نصف في البر فوالله لو قدر الله علي لعذبني عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين، فهذا نفى جهلا عن الله القدرة على إعادته إذا تفرق ذلك التفرق و لم تنتف عنده ألوهيته التي بإيمانه بافراده بها أمكنه أن يخشى الله تلك الخشية فعمل بمقتضى تلك الخشية فاعتبر عمله و جزاه الله بها، و كذا المعتزلة الذين نفو عن الله خلق أفعال العباد التي فيها شر تنزيها له، فإنهم يثبتون لله الخلق و ينفون تلك الجزئية، لكن لما نفوا جزئية أمكن بها عندهم تنزيه الله اعتبرت شبهتهم، فإنهم لو نفوا خلقه تعالى لأفعال الخير لكفروا بذلك بلا نزاع، أو أكثر من ذلك لو نفوا عن الله العلم بما يفعله العباد لكفروا كما يعتقده غلاتهم لأنه نفي هذا القدر تنتفي معه ألوهية الله و اتصافه بالكمال.

فجامع هذه الصفات أنها بانفكاكها تنتفي الألوهية عن الله و بيانها على ضربين :

الأول من جهة الفطرة و العقل : و هو أن العبد بفطرته يشمئز من صرف شيء من العبادات لمن لا علم له أو لا قدرة أو لا غنى أو لا حياة له أو سمع أو بصر أو إرادة أو حكم أو أمر أو غيرها مما يصير صاحبها عبدا لا ربا، فإن كل عبد بفطرته يجد ضرورة من نفسه تمنعه من صرف العبادة لفاقد الكمال بوجه ما.

الثاني من جهة السمع : فإن القرآن مليء ببيان ذلك و هو انتفاء استحقاق العبادة لمن لا كمال له و من ذلك قوله تعالى " وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21)" و كانت دعوة جميع الرسل متضمنة لسب آلهة المشركين بأنها لا تستحق أن تعبد كقوله تعالى " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42)" و قوله تعالى عن يوسف عليه السلام إذ خاطب المدعوين بالعقل فجعل التفرقة نقص تدركه الفطرة و يوجبه العقل فقال : " يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (40)" فدل هذا و غيره على أن العلم الضروري في هذا الباب هو ما أوجبه العقل و أدركته الفطرة و بينته الرسل و لو كان أكثر الناس لا يعلمون ردا على من زعم أن مرده هو العرف و أن المعلوم بالضرورة هو ما يعلمه العام و الخاص ممن سماهم مسلمين فهذا القول متناقض إذ يوجب الدور القبلي لأن صاحبه يرتب ما يجعل المرء محققا لأصل الإسلام على ما يعلمه من سماهم مسلمين و يرتب تسمية الناس مسلمين على تحقيق أصل الإسلام فهو دور قبلي باطل إذ يعني أنه

يرتب معنى أصل الإسلام على تحقيق أصل الإسلام فهو يفسر الماء بالماء و هذا باطل.

فالعلم الضروري في باب التوحيد هو ما أوجبه العقل و أدركته الفطرة و بينته الرسل و لو كان أكثر الناس لا يعلمون و هو مبين في كتاب الله أيما بيان إجمالا و تفصيلا مما يعسر عده من الآيات في كتاب الله المبين.

فكانت هذه الآيات البينات وحيا كاشفة لما أودع الله في فطرة جميع العباد فلا سبيل لدفعها **فهي من المعلوم بالضرورة عقلا و فطرة و وحيا** إذ هي مما يوجبه العقل و تدعوا الفطرة إليه و جاء الوحي بإثباته و رتب العقوبة على مخالفه و النقل الصحيح لا يعارض العقل الصريح فكيف بالفطرة السليمة، و أدلة الوحي فيه متفقة غير مفترقة و مؤتلفة غير مختلفة فلا سبيل لدفع شيء منه إلا ابتغاء الفتنة و ذلك بابتغاء تأويله و من صدر عنه مثل هذا فقلبه زائغ لا اعتداد بإيراده،لذا فمن فعل الشرك فلا عذر له بالجهل و وجه عدم إعذاره كوجه عدم إعذار من أنكر حرمة الكذب و الظلم و عقوق الوالدين و قتل النفس و اللواط و الفواحش و وجوب الصدق و العدل و بر الوالدين و النزاهة من الفواحش و قد بين الله شأنه في فطرة الناس على معرفته و تواطؤ الفطرة مع الوحي فقال : " قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (33) "

و من هذا يمكن أن يقال أنه لا اعتبار لادعاء إعذار المشرك أو المعطل بالجهل أو التأويل بل من عذره بالجهل أو التأويل فهو ملحق به في حكم الكفر مفارق له في شدة الظهور، فلا اعتبار لشبهة الإعذار بالجهل في هذه المسائل، فإن الإعذار بالجهل أو التأويل يكون معتبرا إذا كانت المسألة تحتاج إلى نظر و استدلال و الأدلة فيها مفترقة قد يظن أنه يعسر جمعها كمن أنكر الرؤية التي أثبتها الله في قوله "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23)" بقوله تعالى " لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103)" فعاذر هذا هو الذي قد يعتبر إعذاره لا منكر الرؤية عدولا عن الجمع بين ما ثبت و ضرب آيات الله بعضها ببعض و آمن ببعض و كفر ببعض أو تحكيما للعقل و تقديمه على الكتاب و السنة، و مثل ذلك من قال "إن الله في كل مكان" ظنا منه أن هذا من الكمال الذي يوصف الله به دون أن يتصور المعنى الذي قاله و يستند إلى قوله تعالى "و هو معكم أينما كنتم" فهذا ليس كمن قال "إن الله في كل مكان" و هو يدرك ما يقوله فيفسر ذلك بالحلول تارة او بالإتحاد أو وحدة الوجود فهذا يزول معه انفراد الله بالألوهية و لا يصح تسميته مسلما بل و لا الذي صحح إسلامه، أما الأول فيسأل : هل تريد في كل مكان بذاته ؟ و يبين له حقيقة ماقاله فإن كان يريد أنه في كل مكان بعلمه أو بتدبيره أو بتأييده فالخطأ لفظي و إن أراد في كل مكان بذاته إما حلولا أو اتحادا أو غير ذلك من كلام الزنادقة فكفره أشد من كفر النصارى بإجماع المسلمين.

و من هنا يتبين سبب كفر القدرية الغلاة نفاة العلم، و سبب عدم كفر –إلا بعد البيان- من زعم منهم أن أفعال العباد التي فيها شر ليست من خلق الله –تنزيها له بزعمهم-، فالأوائل نفوا عن الله صفة بانفكاكها تنتفي الألوهية عنه، بينما الغلاة في التنزيه الذين لم يجعلوا أفعال الشر خلقا لله إنما نفوا جزئية في خلقه لا صفة الخلق و لا خلقه للعالم، و يظهر فيها مرادهم للتنزيه كما يظهر لموصي أولاده بتحريقه خشية الله مع نفيه جزئية في قدرة الله، لذا لو أنهم نفوا عن الله خلق أفعال العباد التي فيها خير لكفروا بنفي هذه الجزئية لأن هذا القدر بانفكاكه تنتفي معه الألوهية،

فنفي الخير أن يكون من عند الله نفي للألوهية بلا نزاع عقلا و فطرة و وحيا.

و كذا يتبين أن من عبد غير الله مما هو دون الأنبياء أشد و أظهر كفرا ممن عبد عيسى ابن مريم، و أن من سب الله بما يتنزه منه العبد و الرب أشد و أظهر كفرا ممن سبه بما لا ينقص به العبد كاتخاذ الولد و الصاحبة فهذا القدر ليس بمسبة للعباد و هو مع ذلك مسبة لله، فكيف بما هو مسبة للعبد و الرب، فمن شك في كفر هذا فهو في كفر من شك في كفر النصارى أدخل، و مثل هذا يقال في سب الدين أو الرسول.

معنى التكفير و حقيقة دخوله في الكفر بالطاغوت

التكفير شهادة صادرة عن قلب صادق مدرك للواقع و الشرع، و لا تكون صادقة إذا كان نفس المكفر –باسم الفاعل- جاهل سواء بالواقع أو الشرع، لأنها شهادة صادرة عن نفس مزكاة مقبلة على الله بكليتها و على توحيده عبادة و تلقيا و محبة و ذلك ابتغاء مرضاته، فهي لا تعطي حظا لنفسها بإثبات حكم أو نفيه و لو تكفيرا على سبيل الغيرة على الدين أو أسلمة على سبيل رحمة المخلوقين، لذا كانت هذه النفس مجاهدة مجتهدة في تعلم ما يصيرها مؤمنة، تحاسب نفسها على أدنى المخالفات مدركة خطورة المخالفة فيما لا تعلم، فهي نفس تستعيذ بالله من أن تشرك به شيئا تعلمه أو لا تعلمه، هذه النفس التي في زمن العلم فيه خير من العمل، لا تلتفت إلى الخلق بل إلى نفسها، لتعرف عيوبها و جهلها و فقرها و ما يجب عليها تجاه ربها و نفسها و غيرها، نفس حرب على نفسها و تظن أن جهنم أولى بها، لذا تبذل كل جهدها للتطهر من بواطن عيوبها و ظواهرها، جهادها و صدقها جعله الله سببا في هدايتها و كشف الحقيقة لها تلقيا عن ربها، فهي تعامل النصوص بالإيمان و التسليم فتزداد إيمانا على إيمان الفطرة، هكذا قال سحرة فرعون و قد خالطتهم بشاشة الإيمان : "لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات و الذي فطرنا"، فالتقى نور الوحي مع نور الفطرة فزادها إيمانا بعد إيمان و نورا على نور، فكان حقا على الله أن يهديها إلى صراطه المستقيم و يجعل لها فرقانا لتفرق به ليس فقط بين الحق و الباطل و بين الكافر و المسلم بل حتى بين المنافق الخفي و المؤمن التقي، فهي تدرك ذلك بمقتضى العلم الذي علمها الله إياه و النور الذي قذفه الله في قلبها بحسب تقواها، فليس لها حينئذ أن تغير ما ألهمها الله إياها في حق المنافق الذي يخفى حاله على كثير من المؤمنين، فهي نفس مؤمنة فريسة ترى بنور الله، تعلم أنها تفسد في إيمانها لو ارتكبت محرما صغيرا فكيف إذا غيرت حكم الله في المنافق، فكيف بما حكم الله به صريحا على الكافر، فهي تدرك أن من لم يشهد بكفر الكافر لجحد بآيات الله و كذبها بعد أن أقبل على تعلمها إيمانا و تسليما، و هي تعلم أنها لو لم تقبل على ذلك لكانت معرضة مجرمة.

فالتكفير لا ينشأ من شيطان محب للظهور داس لنفسه يؤثرها و لا يزكيها شأنه مع غيرها "أنا خير منه"، أنا مسلم و هو كافر ... ، كلا بل هذا سبيل الجبارين المستكبرين في الأرض، و هؤلاء لما علموا أن أتباعهم من القطعان الشعبية يتحركون بحسب التوجيهات الإعلامية خاصة إذا كانت معللة بحجج دينية، اختاروا لطواقمهم المسرحية فقهاء كذبة صهيونية يحتكرون التكفير لمصالحهم الدنيوية فجعلوا الدين خادما لمنهج الجاهلية و مفضيا للخسارة الأبدية.

فشأن المكفر أن يغير واقع الجاهلية بمقتضى المقاصد الإلهية استسلاما لله و عبودية لمن جعله خليفة في ساحة الإمتحان الأرضية.

فكان شأنه في التكفير هو إبراز حكم الله في أرضه و إعلاء كلمته لتكون كلمة الذين كفروا السفلى فلا يكون المكفر فتنة للذين كفروا، لا بأسلمة بعضهم أو حتى ذلا تحت نظامهم، و هذا التكفير هو شكر لله على الإيمان و رد الفضل كله له فلا يرى لنفسه فضل على العباد و لو كانوا كفارا فلا مجال لشعار إبليس "أنا خير منه" لذا كان التكفير إنقاذ لمن لا فضل للمكفِّر عليهم و رحمة بهم في الدنيا و الآخرة و لولاه لما علم الكافر أنه كافر و لا عذر له يوم القيامة، فهو أدعى لأن يرجع عما هو عليه، لذا كان من عقيدة أهل السنة و الجماعة عدم الملازمة بين التكفير و العذاب فلا عذاب إلا بعد قيام الحجة ببلوغ الرسالة.

فهذا هو المعنى الحقيقي للتكفير عند المؤمن، و ليس بعد الإيمان إلا النفاق و ذاك حال المعرض أو الجاحد المكذب أو المعاند المستكبر، و هذا القدر لا يدركه مجرموا هذا الزمان، و لأجل ذلك غيروا التسميات و جعلوا الإعراض عن تعلم أصل الدين ترك المرء ما لا يعنيه، و جعلوا الجحد ورعا و التكذيب تأويلا و الصد عن سبيل الله تحذيرا من النفاق و الإفساد في الأرض إصلاحا، و إذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا إنهم هم السفهاء و لكن لا يعلمون، ثم انقسموا تبعا لأهواء الذين استكبروا و تقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون و أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا و لأجل ذلك اتخذوا القرآن مهجورا. فصاروا فرقا يدعون إلى النار و يهدون إلى صراط الجحيم، و نصبوا على أبواب جهنم دعاة أدعياء عملاء كل واحد منهم عليم اللسان يتكلم بالقرآن، فمن أجابهم إلى دعوتهم قذفوه في النار " وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68)" "وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (21) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (22)".

حقيقة دخول التكفير في الكفر بالطاغوت.

قال الله تعالى : " يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4)"

دلت الآية على أن آيات الله المتلوة في كتابه مدركة للأميين فضلا عن غيرهم، فلا سبيل لجعلها غير بينة للأميين أو غيرهم و من هذا يعلم أن الآيات الدالة على توحيد الله أشد ظهورا للأميين من باب أولى فالناس بحاجة لتوحيد الله أشد من حاجتهم للهواء و سائر الإمدادات بل أشد من الحاجة إلى الوجود ذاته لذا كان معوما للأميين أن الشرك ضلال مبين كبينونة هدى ضده.

و قال : "قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6) "

و قال أيضا : "وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (117)"

و قال : "وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (8)"

و غيرها الكثير من الآيات التي تدل صراحة على وصف من عبد غير الله بالكفر و تسميته كافرا.

و قال أيضا : "قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4)"

دلت هذه الآية على أن البرءة من المشرك من ملة إبراهيم التي سفه نفسه من رغب عنها و هي ملة التوحيد، و أن البراءة من المشرك من الكفر بالطاغوت كما أن بغضه و عداوته من الكفر بالطاغوت.

لكنها لم تدل صراحة على أن البراءة من المشرك داخلة في هذا المسمى أم خارجة عنه لازمة له، فهي تدل فقط على أنها واجبة وجوبا لا يقل عن وجوب إبداء العداوة و البغضاء، ففي الآية إجمال و لا دلالة على كون البراءة من المشرك (تكفيره) شرطا أو ركنا في الكفر بالطاغوت، لكنها تدل على كونه أحد الثلاث : ركنا فيه، شرط صحة فيه، شرط في كماله الواجب.

و قال تعالى : "وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (18)"

دلت الآية على أن صفة الإسلام حاصلة لمن يستمع القول فيتبع أحسنه و اجتنب عبادة الطاغوت و أناب إلى الله، و عبادة الطاغوت هنا هي بالمعنى العام، فلا يشركه في شيء مما يختص الله به أو يستحقه وحده، فدلت على أن ترك الشرك و إفراد الله بما يستحق و يختص به هي ملة التوحيد، فلا صراحة على أن تكفير المشرك داخلة فيها إلا على سبيل اللزوم العقلي، فالعلم بأن الإسلام هو ترك الشرك يقتضي اقتضاءا عقليا ضروريا أن من لم يترك الشرك لا يكون مسلما.

و لذا يمكن القول أنه لو كان التسلسل في التكفير عمليا من أصل هذا الدين لكان ذكره في هذه الآية المبينة للتوحيد العملي أحوج من غيره، فلما لم يذكره و لم تكن الأذهان تتبادر إليه و لا الفطرة تقبل عليه ابتداءا و لا يقع إلا تخيله دون تصور جميع حلقاته بلوازمها عند أعلى الناس ذكاء، كان مما لم يخاطب به الأميون وحيا و فطرة و عقلا، فعلم أن التسلسل في التكفير ليس من أصل الدين و لا هو من شرطه، فبطل قول المتسلسلة، و لما كان من لازمه أن التكفير ركن في أصل هذا الدين علم أن البراءة من المشرك ليست ركنا فيه كما أن عدم دلالة الوحي عليه في أحوج مقام لبيانه لا صراحة و لا تلويحا يدل على أنه ليس منه، فالقول بالتسلسل منكر من أصله و إدخاله في أصل الدين بدعة و تغيير في دين

الله، كما أن جعل التكفير ركنا في أصل الدين مساويا لترك الشرك من قبيل التغيير فيه.

فعلم في هذا المقام أمرين :

أحدهما أن تكفير المشرك ليس ركنا في أصل الدين.

و الثاني أن العلم بكون كفر المشرك شرط في أصل الدين ليس شرطا في صحة أصل الدين.

و ذلك لأن كل منهما لازمان للقول بالتسلسل العملي و هو باطل.

و في هذا المقام لا بد من إيضاح مسألة و هي أن اللازم قسمان :

لازم ضروري و لازم إضافي، فالضروري هو الذي يلزم من تصور ملزومه تصوره، كتصور وجود الهاتف عند تصور الهاتف يتكلم به، و الإضافي لا يلزم من تصور ملزومه تصوره بل يتفاوت الناس فيه، كتصور الكهرباء عند تصور الهاتف يتكلم به، و حتى الإضافي يكون ضروريا عن قوم دون قوم و فئة من الناس دون الأخرى.

و لما كانت الموادة في الدين من الفروع اللازمة لتصحيح الدين –أي الأسلمة- و المعاداة في الدين من الفروع اللازمة للبراءة –أي التكفير- و كانت الملازمة ضرورية إذ بتصور الموادة في الدين يتصور تصحيح الدين و بتصور المعاداة في الدين تتصور البراءة تصورا ضروريا، ... لما كان كذلك، كان حكم من صحح دين المشرك هو حكم من واد المشرك في الدين على أن لازم الحق حق.

قال الله تعالى : "لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22) "

دلت الآية على أن من واد المحاد لله و رسوله في الدين أنه لا يؤمن بالله و اليوم الآخر، فحكم على من واد الكافر المعلوم كفره بالضرورة بالكفر، فهكذا علم أن موادة المشرك في الدين كفر و أن صاحبها لا يكون مسلما، لكن في الآية إشارة لطيفة إلى أنه قد يقع في تصور بعض الناس أن فاعل ذلك قد يكون مؤمنا بالله، لا سيما و إن أضهر شرائع الإسلام الظاهرة و لم يظهر ناقضا للإسلام إلا موادته لقريبه الكافر في دينه و مما يؤيد هذا المعنى اختلاف السلف في كفر الخوارج مع أن الخوارج يعادون أهل السنة في الدين، فصارت الموادة في الدين و المعاداة فيه من أصل الدين الذي يكفر تاركه لدلالة الآية و لكن لا يتصور الجميع كفر صاحبه بل يقع الخلاف فيه، و إن كان ثم من يكفر الخوارج فإنه يلزمه تكفيره المرجئة من باب أولى.

لذا كان حكم المعادة في الدين أنها شرط صحة في الكفر بالطاغوت، و لما كانت هذه من فروع التكفير و اللوازم الضرورية له **علم أن تكفير المحاد لله و رسوله شرط في صحة الكفر بالطاغوت و أن العلم بكونه شرطا في صحته هو مما يتفاوت الناس فيه** سواء من حيث إدراك دلالة الآية عليه بالإلتزام الضروري، أو من حيث ما أشارت إليه الآية عند قوله تعالى : "لا تجد قوما"، فهذا الإدراك ليس شرطا فيه، إذ العقل الصريح لا يناقض النقل الصحيح.

لكن لقائل أن يقول، إن لازم المذهب ليس بمذهب، ...، فيقال إن لازم المذهب ليس بالضرورة مذهب لكن لازم الحق حق، فلازم قول فلان من البشر ليس بالضرورة قولا له إلا أن يكون لازما ضروريا في عرفه، لكن لازم حكم الله في كتابه حكم له، فلازم اشتراط

الكفر بالطاغوت للمعادة في الدين اشتراط الكفر بالطاغوت للتكفير، فالمعاداة فرع عن التكفير، و العلم بأن فلانا محاد لله و رسوله يسبق معاداته في الدين و لازم له ضرورة كما تقدم.

و ربما قيل، هناك فرق بين الدين المنتسب إليه المشرك و بين الدين الذي هو عليه واقعا، و يترتب عليه التفريق بين الأسلمة على هذا المعنى و الأسلمة على ذاك.

فيقال : الفرق إنما حصل بسبب تغطية عين القلب عن تصور ما قام به من الكفر و الإلتفات فقط إلى ما أقامه من شرائع الإسلام مع معرفة حاله، فهذا كذب على الحال و على النفس و على الله، و إن كان يتصور أن الدين الذي هو عليه واقعا خالطه كفر أصغر عملي لا يخرج من الملة، قيل هذا التزام عملي بقول المرجئة و هو كفر إذا تعلق بما علم من الدين بالإضطرار أنه كفر أكبر، إذ ما منع المرجئة الأوائل من الكفر هو عدم التزامهم بلوازم قولهم عمليا، فلو التزموا بذلك لصححوا إسلام من قتل نبيا أو بال على المصحف أو كتب القرآن بالنجاسة أو عبد الأصنام و هو يدعي الإسلام، و لو صححوا إسلام هؤلاء لكفروا من غير التفات إلى إرجائهم، لكن بدعتهم كانت قولية فقط، و قد كان أبو حنيفة رحمه الله من أشد الناس تكفيرا بالأقوال و الأفعال و هو يقول بخروج العمل عن مسمى الإيمان لكن لا يلتزم بلازم قوله، و هذا من أمثلة كون لازم المذهب ليس بمذهب.

ما يضاف لله نفيا و إثباتا

و يليه : معنى التكفير و حقيقة دخوله في الكفر بالطاغوت

(تهدى و لا تباع)

إعداد :
أبو الفداء محمد بن إلياس المغربي
عفا الله عنه

- دار التوحيد -